المحاضرة التاسعة: مناهج المستشرقين

تمهيد

تنوعت مناهج المستشرقين حسب الظاهرة التي يدرسونها، إلا أن الدكتور حسن حنفي ، وفي كتابه التراث والتجديد، أبان عن رأي حصيف في توضح أهم المناهج الاستشراقية .

خلص حسن حنفي إلى ما مفاده أن جل المستشرقين وقع في خطأ فادح، باعتبار أن مناهجهم قامت على دراسة الظاهرة الفكرية كظاهرة مادية خالصة ، وكتاريخ خالص مكون من شخصيات و أنظمة اجتماعية وحوادث تاريخية محضة ، يمكن فهمها بتحليلها الى عوامل مختلفة سياسية واقتصادية واجتماعية تحدد نشأتها و طبيعتها وهكذا تفقد الظاهرة طابعها المثالي [1].

وهذا لأن جل المستشرقين ينكرون الوحي ، ومن ناحية أخرى فإن المستشرق ابن بيئته التي تربى فيها ووضع لغتها وثقافتها ومناهجها .

وفيما يلي عرض موجز لأهم مناهج المستشرقين ، حسب حسن حنفي .

1- المنهج التـــاريخي :

هو عبارة عن وصف وتسجيل ما مضى من وقائع تاريخية أو اجتماعية ووضعها بجوار بعضها البعض وترتيبها ثم الاخبار عنها والتعريف بها باعتبارها الظاهرة الفكرية بذاتها .

من المعروف أن البيئة الثقافية الغربية تنسب الأفكار والمذاهب الى قائليها كالديكارتية الى ديكارت ، حتى انعكس ذلك على الدين فالمسيحية الى المسيح .

ظن المستشرق أن كل حضارة لا بد وقد نشأت بالضرورة على نمط الحضارة الغربية، فيصنفون مفكري الاسلام كالغزالي ، والأشعري باعتبارهم أصحاب مدارس كما يفعلون في بيئتهم الغربية : الغزالية والأشعرية وكما نسبوا الدين الى المسيح، راحوا يقولون "المحمدية" وعندما يتكلمون عن محمد **صلى الله عليه وسلم**، يقولون انه كان تاجرا كبيرا وناجحا .

والمستشرق في ضوء المنهج التاريخي عندما ينسب الأفكار الى اللذين صاغوها يهدف من وراء ذلك الى القول : بأن الأفكار وهذه العلوم نشأت أساسا من هؤلاء الأشخاص.

---

[1] حسن حنفي، التراث والتجديد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط5، 2002.صص 70،71.

أما الفهم الاستشراقي للمنهج التاريخي ، فإنه " يقضي على وحدة الظاهرة و استقلالها ويرجعها الى عناصر مادية والى عوامل تاريخية مع أن هذه العناصر المادية،إن هي الا عوامل للفكر وليست مصدرا لموضوعاته فالطبيعة لا تنتج فكرا".[1]

والمنهج التاريخي اذا أريد له النجاح في تناول السيرة فان ذلك يقتضي ثلاثة شروط :

- احترام المصدر الغيبي لرسالة محمد **صلى الله عليه وسلم** ، وحقيقة الوحي الذي تقوم عليه.
- اعتماد حكم موضوعي بغير حكم مسبق يعرقل عملية الفهم.
- تقنية تتمثل في الاحاطة جيدا بأدوات البحث التاريخي بدءا باللغة وانتهاء بطرق المقارنة والموازنة والنقد والتركيب.

2 – المنهج التحليلي :

يقوم المنهج التحليلي على تفتيت الظاهرة الفكرية الى مجموعة من العناصر يتم التأليف بينها في حزمة لا متجانسة من الوقائع أو العوامل التي أنشأتها .

وطبقا لهذا المنهج يصبح العنصر الديني، مع أنه الدافع الأول لتكوين الظاهرة عنصرا مساعدا لبقية العناصر ضامرا ، متقوقعا ، وهذا المنهج مخالف لطبيعة الظاهرة الفكرية المدروسة التي تكونت أساسا من تحويل النص الموحى به الى معنى و المعنى الى بناء نظري[2].

لأن فكرة العوامل التي تحدد تكوين الظاهرة وتتحكم فيها وفكرة العناصر التي تتكون منها مادة الظاهرة لا يمكن أن تساعد على فهم الظاهرة الفكرية التي نشأت طبقا لمنهج التفسير في تفسير النصوص ، أي طبقا لمنطق الشرع في فهم الوحي ، وحسب منطق عقلي آخر حدد طبيعة البناء النظري للظاهرة الفكرية الناشئة من تحول الوعي الى حضارة، ليست ظاهرة مركبة تركيبا صناعيا من عناصر ووقائع مادية، أنشأتها عوامل تاريخية فالظاهرة الفكرية هنا امتداد للنص الديني.

ومن أخطاء المستشرقين في تطبيق هذا المنهج على النبوة والوحي والقرآن والسيرة :

- أنه قد يلجأ اليه عامدا للقضاء على الطابع الكلي الشامل وهو اهم ما يميز الحضارة الاسلامية التي قامت على وحي كلي شامل .
- قد يلجأ اليه بطريقة غير شعورية ، عن رغبة دفينة في الهدم والقضاء على الظاهرة .

---

[1] حسن حنفي، التراث والتجديد ، ص 94.

[2] المرجع نفسه ، ص ص 97، 101.

- قد يلجأ اليه حتى يمكن رد كل جزء الى أجزا شبيهة في حضارات معاصرة ، ومن ثم يكون التحليل مقدمة لإثبات الأثر الخارجي وتفريغها ، الوحي والنبوة من مضمونها الأصيل. وأخيرا فان انتهاج المستشرقين لهذا المنهج، كان نتاجا اللفكر الاستشراقي الغربي الذي انطلق من مسلمة أن المنهج عام وشامل ، و يمكن تطبيقه على أي دراسة انسانية .

1- المنهج الاسـقاطي :

وهو منهج التصورات والانطباعات الزائفة ، والتي تنشأ من خضوع المستشرق لهواه وعدم استطاعته التخلص من الانطباعات التي تركتها بيئته لديه ، " هذه الانطباعات و التصورات و الأحكام المسبقة تؤدي بالباحث –المستشرق– إلىأخطاء جسيمة ، فالظاهرة الموجودة بالفعل بمأأنها لا توجد كصورة عقلية في ذهنه فأنه يحكم عليها بالنفي والظاهرة التي لا وجود لها بالفعل"[1] .

وبتطبيق هذا المنهج على الدراسات الاسلامية فإن المستشرق يسقط تصوره للمسيحية على الاسلام ، فتصبح المسيحية المتصورة هي الاسلام في الواقع ،كأن يسمى الاسلام بالمحمدية .

وواضح أن كل حكم نفي يقوم به المستشرق يقوم على نفي لما لا يوجد في ذهنه ، وكل حكم ايجاب يقوم على اثبات لما يقوم في ذهنه [2] .

وعلى ذلك يمكن القول بأن الاسقاط خطأ في الادراك يجعل المستشرق في عزلة ذهنية ، و الاسقاط بهذه الصورة لا يؤسس منهجا ولا يعطي رؤية لأنه اسقاط لهوى مصلحة أو صورة ذهنية عندما تتوقف عن أداء دورها في كشف الموضوع [3].

2- منهج الأثر و التأثر :

وهو تبادل الآراء قديما وحديثا ، و التفاعل و التأثير و التأثر بين الناس . يقوم منهج التأثر و الأثر عند نفر من المستشرقين على نزعة التعالي والترفع والعلمنة . وذلك لما رأى المستشرق أن حضارته الغربية ما هي الا مردود للحضارة لليونانية متأثرة بها كل التأثر ظن أن كل الحضارات كذلك لا بد أنها أخذت من اليونان ، ومردودة الى حضارتهم[4] .

---

[1] حسن حنفي،التراث والتجديد، ص ص 100، 101.

[2] المرجع نفسه، ص 104.

[3] المرجع نفسه، ص 104.

[4] المرجع نفسه، ص ص 107، 108.

وتطبيقات هذه الفئة من المستشرقين لهذا المنهج على الاسلام وعلومه تكمل عملية الهدم التي مارسها المنهج التاريخي والتحليلي وكذلك الاسقاطي.

جدير بالذكر أن منهج الأثر و التأثر يقوم بالقضاء التام على ما تبقى من الظاهرة، مفرغا إياها من مضمونها، ومرجعا اياها الى مصادر خارجية، دون وضع أي منطلق سابق ، بل بإصدار هذا الحكم دائما، بمجرد وجود اتصال بين بيئتين ثقافيتين وظهور تشابه بينهما .